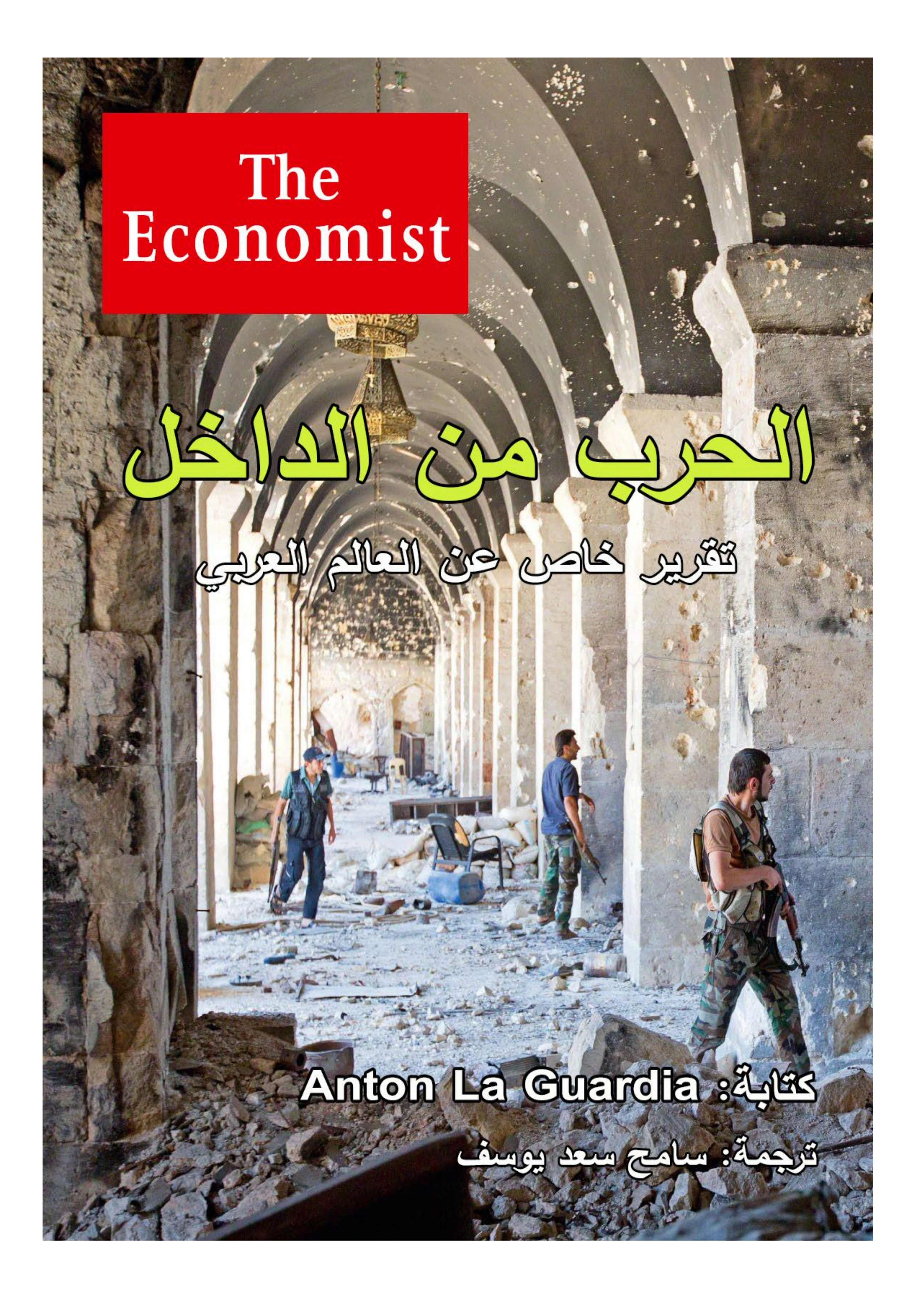

The Economist
الحرب من الداخل
تقرير خاص عن العالم العربي
كتابة: Anton La Guardia
ترجمة: سامح سعد يوسف



Anton La Guardia

نائب رئيس تحرير قسم الشؤون الخارجية

لندن، المملكة المتحدة

Twitter: @AntonLaGuardia

سيرة ذاتية:

انطون لاغوارديا هو نائب تحرير قسم الشؤون الخارجية لمجلة الإيكونوميست. قبل تسلمه هذه الوظيفة، كان محرر لقسم الشرق الأوسط وأفريقيا. كان يعمل سابقاً في بروكسل كمراسل للاتحاد الأوروبي وصاحب عمود شارلمان (٢٠١٠-٢٠١٤). وقبل هذا كان مراسل في شؤون الدفاع والأمن. أنضم السيد لاغوارديا إلى مجلة الإيكونوميست في شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٦، بعد أن أمضى عقدين من الزمن في صحيفة ديلي تلغراف حيث كان يعمل محرر دبلوماسي ومراسل في أفريقيا والشرق الأوسط وأيرلندا. بدأ العمل كمراسل دولي عام ١٩٨٦، حيث غطى الثورة الفلبينية "People Power Revolution" كصحفي مستقل في ذلك العام. قام بتأليف كتاب "الأرض المقدسة والحرب الغير مقدسة: الإسرائيليون والفلسطينيين".

مترجم بتصرف عن تقرير نشرته الإيكونوميست في عددها العشرين بتاريخ ١٤ مايو ٢٠١٦.

ترجمة: **سامح سعد يوسف**

Twitter: @thetrooper20



صراع داخل حضارة

هذا التقرير يسلط الضوء على فشل دول المنطقة، حيث بعد مرور مئة عام على اتفاقية «سايكس-بيكو» التي مزقت الإمبراطورية العثمانية، حيث يكتب الآن تاريخ عربي جديد بالدم.

تشق دير السريان الأرثوذكس مار متي مكانها على جبل قاحل فوق سهل نينوى، وتوفر هذه الدير نظرة قاتمة على الكارثة التي تحل بالعالم العربي. أنشئت الدير في القرن الرابع ميلادي بالقرب من مدينة الموصل، وتقف على حدود طبيعية. يبدأ هنا سهل بلاد ما بين النهرين بالتجعد إلى جبال زاغروس، والمزارعين العرب يصطدمون بالقبائل الكردية. أسفل هذه الجبال تمتد أرض إلى الجنوب حتى عمان غنية بالنفط.

شهد مار متي مرور العديد من الجيوش: الساسانية والعربية والسلجوقية والمغول والصفوية والعثمانية. أدرجت بريطانيا الموصل إلى كيان جديد يسمى العراق، الذي حكموه بعدما نجح الأوربيين في تفكيك الإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. رغم أن هذا الكيان أصبح ساحة لا تهدأ من العنف.

الآن تقف مار متي شاهدا على تفكك العراق ومعظم النظام العربي المعاصر. على قمة تلة مجاورة توجد راية بالأسود تقول "لا إله إلا الله"، معلنة بذلك الحدود بين عالمين جديدان خرجا من الحطام. إلى الغرب هناك الجماعة الجهادية المتعطشة للدماء التي تسمي نفسها "الدولة الإسلامية"- معرفة باسم داعش لمعظم العرب – تسيطر على الموصل والمساحات الشاسعة من وديان نهري دجلة والفرات حتى دير الزور والرقة في سوريا. إلى الشرق، يسيطر المقاتلون الأكراد، البيشمركة على أربيل والسليمانية وكركوك والجبال التي تقع ورائها. على أحد الجوانب، يدعي داعش بأنه أستعاد قانون الله النقي والخلافة الإسلامية القديمة. على الجانب الآخر، يعيش الكرد بالديمقراطية الحديثة (تقريباً) التي صنعها الأنسان وبالقومية، أملين في حصولهم على دولتهم المستقلة يوماً ما.

يسمع طنين طائرة "درون" أمريكية في الأعلى وأصوات الانفجارات القادمة من مسافة. الموصل، غنيمة الحرب، تقبع في الضباب. حطام الذخائر المرتجلة التي أطلقها الجهاديين، بما في ذلك اسطوانة غاز طهو ملحومة على متن الصاروخ، تدل على نقص الموارد لديهم. لكن رغبتهم بالموت في العمليات الانتحارية، يضل سلاح قوي. يقول الجنرال «بهرام ياسين»، أحد القادة المحليين للبيشمركة، " لدينا قدرة محدودة، لكننا ندافع عن العالم برمته والعالم الديمقراطي".

قبل قرن من الزمن في ١٦ مايو، أكملت القوى الأوروبية اتفاقية «سايكس-بيكو» التي أدت إلى إنشاء الدول العربية الحديثة. ستترك القوى الاستعمارية ورائها نظام ديستوبي ميال إلى الحروب والانقلابات، متماسك بواسطة الشرطة السرية والتعذيب والبترودولار، وبدعم من رعاة الحرب الباردة والجنود الأجانب. عانى العرب من الفقر في منطقة غنية بالنفط ومن القمع باسم العظمة العربية. جلبت أرض الديانات التوحيدية الكبرى العديد من الذين يقتلون باسم الله.

هذا العالم المروع ينجرف الآن، وما يأتي بدل عنه أسوأ بكثير. «صدام حسين»، الذي كان يعد من الشخصيات البغيضة، أسقطه الأمريكيين بعد غزو العراق في ٢٠٠٣، مطلقين العنان لشياطين العراق الطائفية. وأطيح بزعماء آخرين من قبل شعوبهم في الربيع العربي عام ٢٠١١: «زين العابدين بن علي» في تونس سقط في يناير من تلك السنة ثم «حسني مبارك» في مصر في شهر فبراير. في ليبيا، أطيح ب«معمر القذافي» بمساعدة الطيران الغربي، ثم لقي مصرعه في أكتوبر. في اليمن، أصيب «علي عبد الله صالح» بجروح خطيرة في انفجار قنبلة، واستقال من منصبه في نوفمبر.

فقط تونس نجحت في التحول الديمقراطي، وإن كان هش. في مصر قاد الجيش ثورة مضادة. في سوريا، قصفت حكومة «بشار الأسد» شعبها بالقنابل والغاز في الحرب أهلية دموية اندمجت تدريجيا مع الحرب في العراق. انقسمت ليبيا إلى إدارتين متنافستين. في اليمن أطاح المتمردين الحوثيين بالحكومة، مما دفع السعودية لقيادة تحالف عسكري ضدهم.

في أماكن أصبحت الميليشيات غير الحكومية أقوى من الدولة، بينما تحولت قوات الدولة إلى مجموعات متهالكة. أصبحت الطائفية حادة. النزاع بين المملكة العربية السعودية، المنصب نفسها المدافع عن السنة، وبين إيران، القوة الشيعية الأكبر، يزيد الأمر سوءاً. تدخلت القوى الخارجية في الصراع، حيث تقود أمريكا حملة جوية ضد "الدولة الإسلامية" وترسل مزيد من القوات الخاصة، بينما تدعم القوات الروسية «الأسد». **هذا صراع داخل حضارة أكثر مما هو صراع بين الحضارات. يوم بعد يوم يصبح العرب أمة من اللاجئين والمهاجرين والمنفيين.**

هذا التقرير الخاص يفحص العوامل التي أدت إلى انهيار النظام العربي. أولاً، فشل النموذج السياسي الاستبدادي في المنطقة، على الرغم من أن الملكيات صمدت أفضل من الجمهوريات. ثانياً، النظام الاقتصادي الريعي، القائم على الموارد الطبيعية أصبح غير مستقر، ليس فقط في الدول المنتجة للنفط، ولكن في كل مكان. ثالثا، الإسلام، وخصوصاً الأغلبية السنية، في حالة اضطراب بخصوص مكان الإسلام في السياسة ودور الجهاد. رابعاً، التدخلات المزعزعة للاستقرار من قبل أمريكا تبعها تحت حكم الرئيس باراك أوباما انفصال مزعزع للاستقرار عن المنطقة. يعاني العالم العربي أزمة شرعية وينظر إلى الدول العربية على أنها وليدة الاستعمار والعديد من قادتها لعبة في يد الإمبرياليين. الأيديولوجيات الرئيسية في العالم العربي: العروبة والإسلام والآن السلفية الجهادية، سعت للتغلب على حدود سايكس-بيكو المكروه. القادة القوميون مثل «جمال عبد الناصر»، الذي جاء إلى السلطة في انقلاب في عام ١٩٥٢، وعد بالوحدة العربية وتحرير فلسطين ولكنه لم يحقق أي منهما.

قليل ومتأخر جداً

باستثناء الدول المَلكية النفطية التي بنت مدن متلألئة في الصحراء، معظم الاقتصادات العربية كانت غير قادرة على تقديم الازدهار الدائم. فشلت نماذجها التي تقودها الدولة في تسخير قوة العولمة، وأخفى ضعفها أموال النفط المتدفقة من المنطقة. الأنظمة التي سعت في وقت متأخر لنسخ النموذج الصيني من الليبرالية الاقتصادية النسبية مع سيطرة سياسية محكمة أنتهى المطاف بها بكونها نسخة مقلوبة من الاتحاد السوفيتي. عندما سقطت الشيوعية في روسيا، تحولت الدولة إلى رأسمالية محاسيب، بينما في العالم العربي التحرر الجزئي في تسعينات القرن المنصرم جلب أولاً المحسوبية ثم الاستياء الشعبي الذي أسقط الأنظمة في نهاية المطاف.

بدلاً من محاولة تحقيق الشرعية من خلال الديمقراطية وحكم القانون، أعتمد الحكام في الغالب على قوة "المخابرات"، وهي الشرطة السرية المنتشرة في كل مكان، والتي غالباً ما تكون الجهاز الأكثر تنظيما في الدولة. في الدول التي يطغى عليها الدين، استفاد الحكام لفترة طويلة جدا من التقاليد الدينية بطاعة الحاكم، حتى لو كان سيء، لمنع الفتنة بين المسلمين. لكن الآن هناك فتنة كثيرة. القمع والسجن والتعذيب غذى المعتقد السائد بأن الحكام العرب، هم في الحقيقة، غير مؤمنين.

وسط هذه الاضطرابات، من المغري الوصول إلى أوجه تشابه تاريخية. رأى البعض مبكراً الانتفاضات العربية كإعادة لعملية انتشار الديمقراطية في أوروبا بعد سقوط الشيوعية عام ١٩٨٩، لكن لاحقاً المقارنة الأفضل التفكك العنيف ليوغوسلافيا السابقة في تسعينات القرن الماضي.

يمكن القول أن الظروف الحالية هي أحدث مرحلة في انهيار الإمبراطورية العثمانية حيث انفصلت ولاياتها الأوربية عنها في القرن التاسع عشر، بينما الولايات العربية انفصلت في القرن العشرين، والدول العربية التي نتجت من ذلك أصبحت تتفتت في القرن الواحد والعشرين. عرب اليوم لايزالون يواجهون نفس السؤال الذي واجه أجدادهم في العهد العثماني في كل مرة يصدمون بالحداثة والتفوق الأوربي: لماذا العالم الإسلامي بإمبراطوريات العالمية المجيدة أصبح ذليل جداً؟

سيقول البعض لأن الغرب أثبت تفوقه، والحل للعرب هو اعتماد المعايير الغربية التي تشمل العلمانية والعقلانية وقبل كل شيء، الديمقراطية. لكن هناك الذي يعتقد أن المسلمين قد عانوا لأنهم فشلوا في الالتزام بأوامر الله، والحل الوحيد هو العودة للنقاء الديني من زمن الخلفاء الراشدين. يقول المعلق السعودي «خالد الدخيل»: "لدينا مشكلة مزمنة في الحكم عمرها أكثر من ١٤٠٠ سنة. من هو الأحق بخلافة النبي؟ لا يزال هذا السؤال يتربص بنا"

مالك ومملوك

في القاهرة ـ يطل على نهر النيل؛ إذ يضع رجل أعمال هاتفه في وعاء زجاجي مغلق، وفي مكتب آخر تضع كاتبة هاتفها في ثلاجة وتغلق عليه الباب، وتقول «إن كانت أجهزة الهاتف الذكية أدوات ناجعة استخدمها الشباب الثوريون خلال ثوراتهم، فإن الخوف اليوم أنها أصبحت أداة تستخدمها المخابرات للتجسس على أصحابها من خلال قرصنتها برمجيًا، وتحويلها إلى أجهزة تنصت على أصحابها، ولذلك فإن أي صحافي يعمل في العالم العربي يحتاج إلى جهاز هاتف مزود بآخر برمجيات الاتصال المشفر، ويفضل المصريون برنامج «سيغنال»، بينما يفضل السعوديون ببرنامج «تلغرام»، أما اللبنانيون فيكتفون باستخدام برنامج «واتس آب» واسع الانتشار».

ويشير التقرير إلى أنه «لم يحصل للدولة العميقة في مصر سوى أنها اهتزت قليلًا؛ عندما أطاحت الثورة بـ«حسني مبارك» عام ٢٠١١، وهي الآن عادت لتنتقم، فقد أطاح الجيش بالرئيس المنتخب «محمد مرسي»، تحت حكم الجنرال الذي يدعي أنه ابن الثورة، فإن مصر أصبحت أكثر قمعًا مما كانت عليه، عندما كانت تحت سيطرة مبارك، كما أصبح الاقتصاد في حالة أسوأ مما كان عليه، وتتزايد الاحتجاجات، خاصة بعد أن قرر الرئيس الحالي «عبد الفتاح السيسي» إعطاء جزيرتين في البحر الأحمر للسعودية، في صفقة مع العاهل السعودي الملك «سلمان».

وتذكر المجلة أن «الكثيرين ربطوا بين الظلم خلال حكم «جمال عبد الناصر» وحكم السيسي، لكن الأخير تنقصه الخطابات الرنانة حول القومية العربية؛ إذ حاول عبد الناصر القضاء على الإخوان المسلمين، وكما حصل مع عبد الناصر، فإن هناك مخاطرة بتحول (الإسلاميين السياسيين إلى جهاديين عنيفين)، وتنظيم الدولة أعلن سيناء، التي كانت مزدهرة بالسياحة الشتوية، إحدى ولاياته، وقام في أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠١٥ بإسقاط طائرة مدنية روسية كانت قد أقلعت من مطار شرم الشيخ».

ويجد التقرير أنه «من المثير أن الزعامات العربية التي خلعت خلال عام ٢٠١١، كلهم كانوا يرأسون جمهوريات، وليس ملكيات، ويبدو أن الرؤساء العرب، بالرغم من صلابتهم، إلا أنهم قابلون للكسر، فكانت مصر مثلًا تحت حكم عبد الناصر نموذج الدولة، كما يصفها الدبلوماسي الفرنسي (جين بيير فيليو) (الدولة المملوكية)؛ كناية عن حكم المماليك في الفترة بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين، كما يطلق فيليو هذا الاسم أيضا على (الجزائر وسوريا واليمن)، بتاريخها المؤلم من سيطرة العسكر».

وتلفت المجلة إلى أن «هذه الجمهوريات (المملوكية) هي في الغالب تميل إلى الاشتراكية، مع ميل للسيطرة المركزية على الاقتصاد؛ إذ قامت ابتداء بحسب نموذج القومية الديكتاتورية في تركيا تحت (مصطفى أتاتورك)، وإن لم يشاركوه علمانيته المبالغ بها، ونظام الأمن الداخلي شبيه بأنظمة الاتحاد السوفييتي، الذي كانت في الغالب تحالفه».

ينوه التقرير إلى أن «القومية المتطرفة ساعدت أحيانًا في إخفاء قاعدة التأييد الطائفية الضيقة، التي قامت عليها تلك الأنظمة: الأقلية السنية في العراق، والأقلية العلوية في سوريا، وليس مستغربًا أن يكون نظاماهما هما الأكثر بشاعة؛ إذ أطلق الكاتب المعارض «كنعان مكية» «جمهورية الخوف» على العراق، أما سوريا فوصفها الفرنسي المستعرب الراحل «مايكل سيويرات» بـ«جمهورية الوحشية»: ففي العراق قام «صدام حسين» باستخدام «الأسلحة الكيماوية» ضد «الأكراد» في مدينة «حلبجة» عام ١٩٨٨، وفي سوريا قام «حافظ الأسد» بتسوية «حماة» بالأرض عام ١٩٨٢، وفي الجزائر شنت الحكومة حربًا قذرة على الجهاديين عام ١٩٩٢، استمرت عقدًا كاملًا».

وتقول المجلة إن «مصر مبارك حكمت بعنف أقل؛ وربما كان ذلك للحصول على دعم حلفائه الغربيين، بينما لم يتردد السيسي في سفك الدماء؛ فقد قتل الآلاف في قمعه للإخوان المسلمين، وسجن عشرات الآلاف».

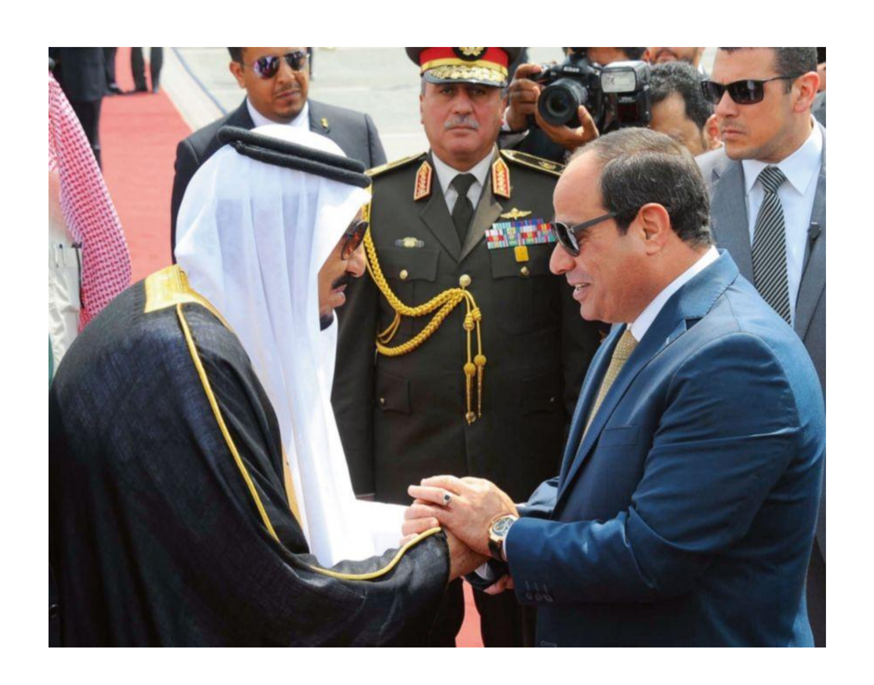
ويورد التقرير، الذي ترجمه موقع «عربي٢١»، أنه «بحسب نظرية المؤامرة، فإن الجنرالات تلاعبوا بالثورة الشعبية المصرية عام ٢٠١١، فاستخدموا المتظاهرين للتخلص من مبارك، واستخدموا الإخوان لتهميش الليبراليين، وأخيرًا استخدموا الليبراليين للتخلص من الإخوان، وإقامة حكم عسكري مباشر، لكن في الغالب كانت ردود فعل العسكر مرتجلة، إلا أن النظرية تعكس كيف ينظر الناس للدولة العميقة»

وترى المجلة أن «القمع تعسفي ووحشي، ولم يساعد سعي السيسي للحصول على الاحترام الدولي قتل طالب الدكتوراه الإيطالي، الذي كان موضوع بحثه النقابات المصرية؛ إذ يعتقد أن من قتله الشرطة السرية».

وينقل التقرير عن «يزيد صايغ» من مركز «كارينغي» في «بيروت»، قوله: «لا أعتقد أن هناك دولة في مصر اليوم، بل هناك ائتلاف لمجموعات مصالح ومؤسسات، كل واحدة منها فوق الدولة، وتعمل كلها بأهداف متقاطعة وعادة ما تعمل على إضعاف السيسي».

وتذكر المجلة أن الجمهوريات بنت شرعيتها على هدفين؛ الأول هو الوحدة العربية، والثاني تحرير فلسطين، ولم يتم تحقيق أي منهما، مشيرة إلى أن الرؤساء استسلموا لإغراءات تحويل جمهورياتهم إلى جمهوريات وراثية؛ إذ إن «حافظ الأسد» ورثه «بشار»، و«مبارك» كان يخطط لتسليم الحكم لابنه «جمال» من بعده، وكذلك «علي عبد الله صالح» في اليمن كان يحضر ابنه «أحمد» لخلافته، وفي تونس كان يعتقد بأن «زين العابدين بن علي» كان يحضر لاستخلاف زوج ابنته «صخر المطيري».

ويفيد التقرير بأن البعض يسخر من هذه الجمهوريات، بوصفها «جملكيات»، ويقول أستاذ العلوم في جامعة باريس «غسان سلامة»: «وصلنا إلى مرحلة سخيفة أصبحت فيها الدولة مثل السيارة أو الشقة، التي يمكنهم توريثها لأبنائهم، وهذا كان أحد أهم أسباب الانتفاضات».



وتبين المجلة أنه «في المقابل، فإن حال الأنظمة الملكية كان أفضل، على الأقل إلى الآن؛ فخلال حقبة الحراك القومي، بدت تلك الأنظمة مهددة بالانقراض؛ فقد تم إسقاط خمسة أنظمة ملكية من الملك «فاروق» في مصر عام ١٩٥٢، والملك «إدريس» في ليبيا عام ١٩٦٩، وشعر البقية بالخطر لعقود، لكن يبدو الآن أن هناك شيئًا خاصًا بالأنظمة الملكية العربية، من ملوك وأمراء وسلاطين، يجعلها أكثر تحملًا من الديكتاتوريات الرئاسية».

ويرى «سلامة» أن هناك ثلاثة مصادر لشرعية الحكام العرب: «التمثيل» «لا أحد منهم ينتخب بشكل حر»، و«الإنجازات» «معظم الجمهوريات لم تحقق ما تفتخر به»، و«المنشأ» «وهو أفضل المؤهلات»، بمعنى (أحكم لأنني أنشأت البلد) كما يقول« سلامة». وتشير المجلة إلى أن «هذا هو حال العائلة المالكة السعودية، التي أعطت اسمها للبلد، وتستطيع العودة بحكمها إلى القرن الثامن عشر في أواسط نجد».

وبحسب التقرير، فإنه «بالنسبة لدول مجلس التعاون الخليجي الستة المنتجة للنفط، السعودية والكويت والبحرين وقطر والإمارات وعُمان، فإن مفتاح البقاء هو المال؛ إذ قامت هذه الدول بالإنفاق بسخاء خلال ثورات الربيع العربي، فرفعت الرواتب، وأطلقت مشاريع جديدة للحفاظ على شعبيتها، كما أن دول المجلس أيضًا تحظى بدعم دبلوماسي وعسكري من حلفائها الغربيين، (ففي قطر، هناك قاعدة جوية أمريكية ضخمة، ويوجد في البحرين قاعدة بحرية)، فبعد قيام مظاهرات واسعة في البحرين؛ إذ تحكم الأقلية السنية الأكثرية الشيعية هناك، قامت دول الخليج الأخرى بإرسال قوات للجزيرة لدعم النظام الملكي هناك».

وتبين المجلة أنه «في المغرب والأردن لا يوجد نفط، لكن ملكيهما محمد السادس وعبدالله الثاني يستمدان شرعيتهما من الدين، إشارة إلى انحدارهما من سلالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كما يدعيان شرعية سياسية، فإن محمد الخامس أبعده الفرنسيون إلى مدغشقر، وصارت صرخة المتظاهرين الوطنيين هي المطالبة بعودته. أما الهاشميون فقاموا بإطلاق الثورة ضد الأتراك (بمساعدة البريطانيين) عام ١٩١٦».

ويجد التقرير أن «الأهم من ميراثهما ربما كان تمكن هذين النظامين من التأقلم مع التغيرات، فعلى عكس ما عليه وضع العائلات المالكة في الخليج؛ إذ يمسك أبناء العائلات المالكة بالمناصب الحكومية المختلفة، تبتعد العائلة الملكية في كل من المغرب والأردن عن المناصب الحكومية، كما أبدى النظامين براعة في استيعاب المعارضين، أو إبقاء خطوط الحوار معهم مفتوحة، وخلال فترة الربيع العربي قام النظامان بإظهار تجاوب مع المطالب بالمزيد من الحرية، وقام البلدان بإصلاحات دستورية محدودة، وأجريت انتخابات برلمانية».

وتوضح المجلة أن «الوضع في الأردن أكثر توترًا؛ إذ قاطع الإخوان المسلمون الانتخابات، وتحاول الحكومة شق الحركة، أما في المغرب فقد فاز حزب العدالة والتنمية المنبثق عن الإخوان المسلمين بأكثرية الأصوات، وأصبح رئيس الحزب عبد الإله بن كيران رئيسًا للوزراء على رأس ائتلاف من أربعة أحزاب».

وتختم «إيكونوميست» تقريرها بالإشارة إلى أن ثلاث إمبراطوريات هيمنت على تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام، وهي: الأموية والعباسية والعثمانية، ويقول مدير مركز «القدس للدراسات السياسية» «عريب الرنتاوي» «فكرة السلالات الحاكمة تسيطر على تفكير الناس، ولو أجري استفتاء في الأردن سيصوت الأغلبية لصالح الملكية»؛ إذ وافقت الأحزاب السياسية في الأردن والمغرب على قبول الملكية، وأضاف «الرنتاوي» أنه في الأماكن الأخرى «تخلق الأنظمة الدموية معارضة دموية».

الصراع الجديد

اختفت منذ وقت طويل الصور والتماثيل المنمقة لصدام حسين. الصور الآن الأكثر أنتشار في بغداد هي لعلي وأبنه الحسين، اللذان يعدهما الشيعة القادة الشرعيين للإسلام بعد وفاة النبي محمد ولهما مكانة عظيمة عندهم. عندما أصبحت الخلافة الإسلامية السنية بيد العباسيين، أصبحت بغداد مدينة شيعية واضحة.

في زمن حكم صدام كان يتم اعتقال الشيعة لمحاولتهم الذهاب لزيارة ضريح الحسين في كربلاء، لكن الآن تغلق الطرق الرئيسية أمام السيارات في أوقات عاشوراء، لأن الكثير من الناس يذهبون مشي على الأقدام. نعوش المقاتلين الشيعة الذي قتلوا في معارك ضد الجاهدين السنة تحمل على سيارات وتدفن في النجف. أهل السنة في بغداد - الذين بقوا بعد سنوات من العنف الطائفي الذي دفع العديد منهم للهجرة إلى الخارج – يجدون مثل هذا الشعائر الشيعية كريهة وحتى مخيفة على نحو متعمد.

أنقسم الإسلام إلى الطائفتين خلال " الفتنة الكبرى" على خلافة النبي محمد. يقول السنة أن القيادة مررت إلى الخلفاء الراشدين والذي كانوا أصحاب النبي: أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي. بعد ذلك انتقلت الخلافة إلى دمشق تحت حكم الأمويين ثم إلى بغداد تحت العباسيين. يقول الشيعة أن الخلافة أغتصبت، حيث كان يجب أن تنتقل إلى آل محمد، أولاً علي ثم بعده الحسين. لكن علي قتل في الكوفة ودفن بالقرب في النجف، بينما قتل الحسين في كربلاء ودفن فيها، ومن هنا تأتي أهمية المدينتين للشيعة. مررت القيادة الشيعية لسلسلة من الأئمة وتفرقت الطائفة إلى عدة طوائف بمرور الزمن مثل الزيدية "الخمس" و الاسماعيلية "السبعية" والأغلبية "الاثني عشر". أصبح التشيع الاثني عشر هو دين الدولة الفارسية الصفوية، ولهذا السبب ينظر السنة المتشددين إلى الشيعة على أنهم أعداء أجنبيين، وحتى غير مسلمين.



يؤدي الشيعة مراسيم عاطفية لأحياء ذكرى استشهاد علي والحسين، بما في ذلك جلد المرء لنفسه. كثير ما يُتهم الشيعة بخوضهم في "المظلومية"، رغم أن السُنة هذه الأيام هم من يشعرون ويتصرفون كالمظلومين. يشعر السنة بالحرمان في العالم العربي، رغم كونهم يشكلون أغلبية المسلمين العرب – مهمشين من قبل الأغلبية الشيعية في العراق، وتحت هجوم قاتل من قبل نظام بشار الأسد في سوريا (يهيمن عليه العلويون، وهو فرع من المذهب الشيعي)، ومهددين من قبل حزب الله في لبنان، ومتفرقين ومحتلين من قبل إسرائيل في فلسطين. تم طردهم من السلطة في اليمن على يد الحوثيين، المنحدرين من الزيدية.

تتواجه الآن الألوية السنية والشيعية في سوريا. الذين يقاتلون مع الأسد من بينهم متطوعين شيعة من العراق وأفغانستان وباكستان يقودهم حزب الله وضباط كبار من الحرس الثوري الايراني. ضد مجموعتين رئيسيتين: جهاديين "الدولة الإسلامية" المتكونين من متطوعين من عدة دول، والمجموعة الأخرى، تحالف الثوار السوريين السنة المدعومين بدرجات متفاوتة من قبل الدول السنية المجاورة، أبرزهم السعودية وتركيا والأردن. التفجيرات

الانتحارية والصواريخ ضعيفة التوجيه تنباها أولاً حزب الله عام ١٩٨٣، ثم نسخها الإسلاميين الفلسطينيين وتعد الآن التكتيك المفضل لدى الجهاديين السنة.

يبدوا أن الإسلام أكثر من أي وقت مضى هو القضية التي يدعي الجميع القتال من أجلها. لكن أي نسخة من الإسلام؟ البروفيسور يوجين روغان من جامعة أكسفورد يقول إن مصير العالم العربي سيحدده النزاع بين ٣ نسخ من الإسلام: الاخوان المسلمون والسلفية الجهادية (كلاهما سني) وحكم ولاية الفقيه الشيعية.

يحتل الإسلام مكانة سياسية قوية. لم يكن محمد فقط رسول ديني بل حاكم ومحارب. أنتشر الإسلام بالكلام والسيف. الإسلام بالنسبة لكثير من المسلمين ليس فقط دين شخصي ولكن أيضاً مخطط لتنظيم المجتمع بشكل مثالي، ويعتبرون المفهوم الغربي بفصل الدين عن السياسة هراءً. يعد المسلمين دينهم بأنه الوحي الإلهي الأخير والقرآن كلام الله. تميل بعض الجماعات إلى الترجمة الحرفية للآيات ويسعى المسلمين الإصلاحيين للتقليل من أهمية " آيات السيف" – مثال: " فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ" - لكن الأيديولوجيات الجهادية ترفض هكذا شيء وتعده إسلام مزيف.

في السنوات الأولى بعد الاستقلال، جندت الأنظمة الملكية العربية دعم الإخوان المسلمين ضد القوميين واليساريين. ازدهرت الإسلامية بعد حرب عام ١٩٦٧ عندما أدى انتصار إسرائيل إلى فقدان القوميين لمصداقيتهم. عام ١٩٧٩ كان حافلاً: وقعت مصر اتفاقية سلام مع إسرائيل (اغتيل الرئيس أنور السادات بسببها على يد الإسلاميين) ووصل آية الله خميني إلى سدة السلطة في إيران، منشطاً بذلك المسلمين المتطرفين من كل الأنواع. قاد جهيمان العتيبي مسلحين متطرفين وسيطرة على الحرم المكي ودعا إلى سقوط آل سعود. أحتل الاتحاد السوفيتي أفغانستان، الأمر الذي دفع السعوديين (والأميركيين) لدعم الجهاديين ضد الشيوعيين.

وصول القوات الأمريكية إلى السعودية عام ١٩٩٠ من أجل إخراج القوات العراقية من الكويت وإبقاء صدام حسين تحت السيطرة، دفع بأسامة بن لادن إلى طريق الجهاد ضد الأمريكيين. أثار هجوم تنظيم القاعدة على الولايات المتحدة عام ٢٠٠١ قرار جورج بوش الأبن بالإطاحة بصدام حسين، مما أدى إلى قلب التوازن الطائفي في العراق والمنطقة.

كثيراً ما يقال أن الشيعة لا يصدقوا حصلوهم على السلطة والسنة لا يقبلوا بأنهم خسروها، الأمر الذي يجعل الصراع ربما أكثر شراسة. وتعمد الجهاديين العراقيين إثارة غضب الشيعة. في رسالة تم اعتراضها من الراحل أبو مصعب الزرقاوي زعيم تنظيم القاعدة في العراق وجدُ تنظيم "الدولة الإسلامية"، قال فيها إن الجهاد ضد الأمريكيين سيكون سهل، لكن الخطر الحقيقي هم الشيعة، حيث وصفهم ب"الثعلب الماكر والخبيث". استدرج الزرقاوي الشيعة إلى حرب طائفية "أيقظت" لاحقاً العالم السني.

كان الهاجس الآخر للزرقاوي إعلان "الدول الإسلامية". كان هذا الهدف بعيد المنال لكل من تنظيم القاعدة وجماعة الإخوان المسلمين، لكن الزرقاوي وأتباعه أرادوا تسريع حدوثه. بعد مصرع الزرقاوي، تغيرت أسم جماعته مرات عديدة، على الرغم من أن العديد من كبار أعضائه جاءوا من حزب البعث. بعد انشقاقهم عن القاعدة في أوائل عام ٢٠١٤ وسيطرتهم على الموصل في شهر تموز من نفس السنة، أعلنت عن قيام الخلافة من قبل زعيم "الدولة الإسلامية"، أبو بكر البغدادي. بسبب طموحهُ للخلافة وتجاهله للتقاليد الإسلامية والتكتيكات الطائفية، تنصل منه حتى تنظيم القاعدة. رغم إضعافها، لا يزال تنظيم الدولة الإسلامية يتصدر الأخبار ويحصل على المجندين. وفقا لستيفان لاكروا في معهد العلوم السياسية في باريس، "القاعدة والدولة الإسلامية أشبه بتروتسكي وستالين: الأول يريد انتظار ثورة العالم، بينما الآخر يريد بناء اشتراكية في دولة واحدة."

ظهور تنظيم الدولة الإسلامية شكل عودة مذهلة لجماعة أهلكت تقريباً من قبل الجيش الأمريكي في العراق عامي ٢٠٠٧-٢٠٠٨. أدت ٣ عوامل إلى إحياء التنظيم من جديد: الانسحاب الأمريكي عام ٢٠١١ وتهميش السنة من قبل رئيس الوزراء الشيعي نوري المالكي الذي ملئ الجيش بالموالين له من الشيعة وفصلَ الصحوات السنية التي أنشأها الأمريكيين، والانهيار العنيف للدولة في سوريا الذي سمح للدولة الإسلامية بأنشاء قاعدة قوية هناك.



اندماج الحرب العراقية والحرب السورية في صراع واحد يصنع تحالفات غريبة. تدافع إيران عن حكومتي بغداد ودمشق، بينما تحالفت أمريكا مع العراق، ووقفت على الأقل نظرياً ضد النظام السوري. تقول روسيا أنها تقاتل الدولة الإسلامية لكنها في الغالب تنقذ بشار الأسد من الثوار الآخرين. الأكراد السوريين متحالفين مع أمريكا ضد الدولة الإسلامية، ومع روسيا ضد الثوار الآخرين.

الحكام السنة، خصوصاً آل سعود، يرون أنفسهم محاطين بالشيعة الخبثاء، حيث تحاول إيران إثارة الشيعة في البحرين والعراق وسوريا ولبنان واليمن. يقول مسؤول سعودي كبير، "تريد إيران إعادة تأسيس الإمبراطورية الفارسية." دخلت السعودية في حرب اليمن بعد سيطرة الحوثيين على العاصمة صنعاء، وتوجههم للسيطرة على المدينة الساحلية عدن. في سوريا تعمل السعودية بالتعاون مع تركيا على تحويل الثوار إلى قوة أكثر تماسكاً، تساعدها بذلك شحنات الصواريخ الأمريكية المضادة للدبابات. يقول أحد المطلعين في الرياض، يحاول آل سعود إبعاد الشباب السني عن داعش، وهذه أحد أسباب تصرفهم على أنهم المدافعين عن القضية السنية.

إيران من جانبها، تشعر بالامتنان لسوريا لكونها البلد العربي الوحيد الذي وقف بجانبها أثناء حربها الطويلة ضد العراق، وتراها جسر حيوي إلى حزب الله. لكنها عادةً ما تفضل الميليشيات العميلة القوية داخل الدول الضعيفة، كما هي الحال في لبنان. أصبحت في هذه الأيام مزاعم حزب الله بأنه الدرع الرئيسي ضد إسرائيل غير مقنعة، بدلاً من ذلك أصبح الحزب رأس الحربة للشيعة.

وحتى في المناطق التي لا توجد فيها انقسام طائفي سني- شيعي، لا تزال هناك صراعات. تركيا وقطر الدعامين الرئيسيين لجماعة الإخوان المسلمين، بينما مصر والإمارات وإلى حد أقل السعودية، تعارضهم. في ليبيا المنقسمة سياسياً، الحلفاء المؤيدين للإخوان المسلمين دعموا حكومة "الفجر" في طرابلس، بينما الآخرين دعموا تحالف "الكرامة" في بنغازي.

منذ انقلاب عام ٢٠١٣ في مصر، يعيش الإخوان المسلمين على أعقابهم. المنفيون منهم في إسطنبول والدوحة يتحسرون على محمد مرسي، أول رئيس مصري من الإخوان وأقصرهم حكماً. العمل بدستور متنازع عليه واستعداء الليبراليين خلق مناخ للجيش للإطاحة به. بعض الإخوة الزملاء من بلدان أخرى حثوه على أن يكون أكثر ميلاً للمصالحة. يقول الدكتور هشام هيلر من المجلس الأطلسي، وهو مركز أبحاث أمريكي، "لو لعب الإخوان أوراقهم بشكل مختلف، ربما كانوا ليتجنبوا الانقلاب تماماً،... كانوا متحمسين – على خطأ – بفكرة أنهم كانوا يعيشون في عصر جديد ولم تعد هناك حاجة لكبت جماحهم."

تحرك في تونس حزب النهضة الإسلامية بتعقل أكثر، فقد فاز بأكثرية الأصوات في الانتخابات التأسيسية التجميعية عام ٢٠١١ وحكم البلاد ضمن تحالف واسع. ومع نمو العنف الجهادي والإطاحة بمرسي، تخلى حزب النهضة عن عدة نقاط في الدستور، وسمح له أن يكون أكثر علمانية مما يريده الحزب. تم تسليم السلطة إلى حكومة تكنوقراط في يناير ٢٠١٤، بعد أن تم الاتفاق على الدستور.

تجنب المغرب احتجاجات الشارع في عام ٢٠١١، وعين الملك حكومة يقودها الاسلاميون في نوفمبر من ذلك العام. بدأت الدولة المغربية تسيطر بشكل مباشر تدريجي على المساجد، كجزء من جهود واسع لمكافحة التطرف بعد سلسلة من الهجمات الإرهابية في الدار البيضاء عام ٢٠٠٣. افتتح في الرباط في عام ٢٠١٥، مدرسة جديدة للأئمة تسعى إلى تعزيز النموذج المعتدل للإسلام على أساس المذهب المالكي، والقبول الحاسم لمكانة الملك ك"أمير المؤمنين".

التدخل الأجنبي

من بيروت إلى بغداد

تعبت أمريكا من لعب دور الشرطي في العالم العربي، والعكس صحيح. لكن الانسحاب منه قد يكون بمثل سوء التدخل.

يبذل اللبنانيون قصار جهدهم لنسيان حربهم الأهلية، لكنهم قلقين من الحرب في سوريا المجاورة. خط الجبهة القديم في وسط بيروت يجري البناء عليه، وحتى المباني الحجرية من العهد العثماني تترك لتتعفن ليحل مكانها شقق فاخرة للزوار الأغنياء من الخليج.

نسى العالم الخارجي تقريباً الحرب الأهلية اللبنانية، رغم أنها تحمل العديد من الإنذارات المسبقة حول معاناة العالم العربي اليوم. صراعها كان ينظر أليه كاستثناء. لكن الآن أصبح معظم الهلال الخصيب نسخة أكبر وأكثر شرا من لبنان. أولئك الذين اعتقدوا أن الدكتاتور السوري، بشار الأسد، سيتم الإطاحة به سريعاً لم يأخذوا في الحسبان الأقليات – من بينهم المسيحين والأكراد وطائفته العلوية – التي قد يستنجد بها.

إذا كان العرب يتذكرون التاريخ جيداً، فالأميركيين عكسهم. لبنان كان بمثابة تحذير من مخاطر التدخل العسكري في السعي لتحقيق المهمة الضخمة في منطقة الشرق الأوسط. عندما غزا جورج دبليو بوش العراق بتهور – ظن منه إزاحة صدام حسين سيجعل العالم أكثر أمان من الإرهابيين وسينشر الديمقراطية لعلاج علل العالم العربي- لم يأخذ بعين الاعتبار الدروس المستفادة من التدخل الأمريكي الخطأ في لبنان قبل عقدين.

آنذاك أرسلت أمريكا قواتها إلى بيروت على رأس قوة متعددة الجنسيات للإشراف على إجلاء المقاتلين الفلسطينيين بعد الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. بعد أن استفزتها هجمات الفلسطينيين، سعت إسرائيل إلى تغيير شكل المنطقة باستخدام تفوقها العسكري: تطرد منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين من لبنان، وتثبت رئيس لبناني جديد، بشير الجميل، ويتم تحت حكمه توقيع معاهدة سلام مع الدولة اليهودية، ودفع المتطرفين الفلسطينيين إلى تبني فكرة أن الأردن – وليس الأراضي المحتلة- هي فلسطين. غادرت القوات الأمريكية والأوربية لبنان بعد أن سهلت خروج منظمة التحرير في أغسطس ١٩٨٢. لكنهم عادوا بعد أن لقي بشير الجميل مصرعه بقنبلة (يعتقد أن سوريا زرعتها)، وانتقام له، قامت المليشيات من طائفته المارونية المسيحية بذبح المئات، إن لم يكن الآلاف، من المدنيين الفلسطينيين أمام أنظار القوات الإسرائيلية.

جهود أمريكا في إبرام تسوية لم تدم طويلاً بين إسرائيل ولبنان في مايو ١٩٨٣، ودعمها لقوات الحكومية اللبنانية وميلشياتها ضد سوريا وميلشياتها، جعلها تغرق أكثر في الحرب. ظهرت هناك مكان الجماعات الفلسطينية قوة أكثر تدين وشدة، حزب الله، وهي مليشيا شيعية مدعومة من إيران. أخذ حزب الله الريادة في استخدام الانتحاريين في العالم العربي. السفارة الأمريكية على الكورنيش تم تفجيرها في ١٩ أبريل ١٩٨٣، ودمرت قاعدة للبحرية الأمريكية في شهر أكتوبر من ذلك العام. الفرنسيين والإسرائيليين هوجموا أيضا، وسرعان ما انسحب القوات الدولية. في عام ٢٠٠٠، أجبر حزب الله إسرائيل على الانسحاب من جنوب لبنان وأكتسب شهرة في العالم العربي.

لم يبقى الكثير في بيروت من ذكريات التدخل الأمريكي، فأنقاض مبنى السفارة الأمريكية تم استبداله بمجموعة شقق فاخرة. القاعدة البحرية القديمة أصبحت موقف للسيارات. الآن يعيش ويعمل الدبلوماسيين الأمريكيين في مجمع محصن على سفوح جبل لبنان، مع جدران مضادة لرصاص القناصين لحمايتهم أثناء تنقلهم من بناية إلى أخرى. من بين الذين نجوا من انفجار السفارة عام ١٩٨٣، كان رئيس القسم السياسي، راين كروكر، الذي خدم لاحقاً كسفير أمريكا في العراق، وأصبح يعرف بـ"لورنس العرب الأمريكي" لدوره في زيادة عدد القوات الأمريكية التي ساعدت في إنقاذ مؤسسة العسكرية الفاشلة في سنوات ٢٠٠٧-٢٠٠٨. يقول كروكر: "خلال حياتي تعلمت شيئين، كل حذر عند الدخول في أي شيء وكن حذر عند الخروج منه".



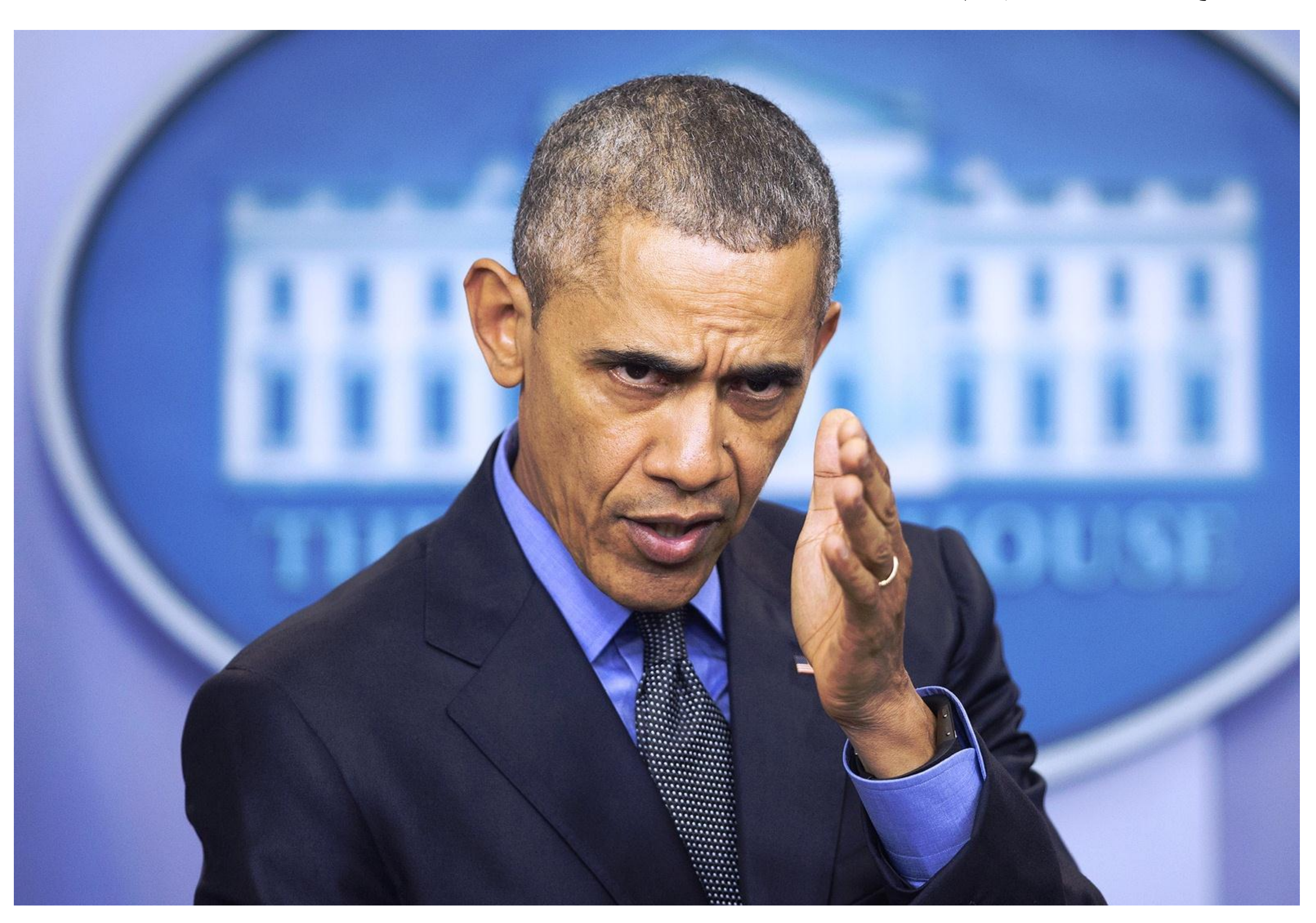
يعتقد كروكر أن التدخل الأمريكي في لبنان أنشئ سلسلة من الأحداث لم يمكن لأمريكا السيطرة عليها، كما فعل غزوها للعراق. والانسحاب الأمريكي المتعجل من لبنان كان أيضاً سابق لوقته، وأظهر أنه يمكن هزيمة دولة عظمى بالإرهاب والعملاء. "سوريا وإيران وحزب الله تعلموا الدرس وقاموا بإعادته في العراق". سهلت سوريا الهجمات على القوات الأمريكية من قبل تنظيم القاعدة، بينما دعمت إيران مليشيا جيش المهدي الشيعية.

تحت حكم أوباما، والذي وعد قبل انتخابه بإنهاء الحرب في العراق، انسحبت أمريكا كلياً من البلاد في شهر ديسمبر من عام ٢٠١١. لكن هذا الانسحاب ينظر أليه الآن بكونه عمل طائش. أوباما أعلن في ذلك الوقت أن أمريكا تركت خلفها بلاد مستقرة. لكن ساسة العراق من السنة والشيعة والأكراد رجعوا إلى عاداتهم الطائفية الضيقة، والتي حسب ما يصفها كروكر "الحل الوسط -بالنسبة لهم- يعتبر تنازل، والتنازل يعتبر هزيمة، والهزيمة تعني الموت."

تردد أوباما في الانجرار إلى حرب أخرى في سوريا أمر معقول. أصبح شعاره: "لا تقم بأفعال طائشة". لكن سوريا تظهر أيضاً مخاطر التقاعس الشديد. قاوم أوباما الضغط المسلط عليه بالقيام بعمل عسكري ضد الأسد حتى بعد أن عبر الأسد "الخط الأحمر" الذي وضعه أوباما باستخدامه الأسلحة الكيماوية.

فقط عندما سيطر جهاديي تنظيم الدولة الإسلامية على شرق سوريا واجتاحوا شمال العراق شعر أوباما بأنه مضطر إلى إعادة إرسال القوات الأمريكية للعراق. لو كان لأوباما أولوية في الشرق الأوسط، فهي البحث عن اتفاق مع إيران لوقف برنامجها النووي، أو على الأقل تجميده لعقد أو أكثر. في بعض الأحيان كان أوباما يعلق أمله على أن الاتفاق سيقوي التيار المعتدل في طهران ويجعل إيران شريك أكثر لين. على المدى الأكثر واقعية، يريد أوباما تحقيق علاقة أكثر توازناً بين إيران والعرب، قائلاً أن عليهم "مشاركة" المنطقة. بالنسبة لحلفاء أمريكا التقليديين، الممالك العربية وإسرائيل، هذا يبدو كما لو أن أمريكا تتخلى عن الشرق الأوسط للنفوذ الإيراني. يقول بعض حلفائها أن تراخي أمريكا عن سوريا قد شجع أعدائها، واستعدادها للتخلي حسني مبارك في مصر قد هز أصدقائها.

أوباما الذي أنكه بوضوح التزام أميركا الطويل في المنطقة، من الدفاع عن إمدادات النفط في الخليج إلى محاولة التوسط في سلام يبدو مستحيلا بين اسرائيل والفلسطينيين. عندما سئل أوباما ما إذا كانت السعودية صديقة أمريكا، أجاب أن "الأمر معقد". علاقته مع إسرائيل أيضاً، كانت بعيدة على الاستقامة. من خلال محاولة الانسحاب من المنطقة، ترك أوباما مساحة ليشغلها أخرون. السعودية في صراع بالوكالة متزايد الحدة مع إيران. روسياً أيضاً دخلت المنطقة ناشرة طائراتها وقوات أخرى لدعم النظام السوري. عند هذه اللحظة، روسيا هي من تلعب دور المهيمن في الشرق الأوسط، حيث تسعى لوضع قواعد الحرب والسلام الذي يتبعه.



ويأمل أصدقاء أمريكا أن الرئيس التالي الذي سيتم انتخابه في شهر نوفمبر سيكون له دور أكثر فعالية. هيلاري كلينتون المتنافسة الديمقراطية تبدوا من دعاة التدخل العسكري، حيث سبق لها أن دعت إلى تسليح معارضي الأسد وفرض منطقة حظر طيران فوق سوريا. بينما دونالد ترامب، المشرح الديمقراطي، أنتقد بحدة الاتفاق الايراني وتحدث عن الحاجة لـ"شن حرب على الإسلام المتطرف"، لكنه أيضاً يقول أن على أمريكا الكف عن التدخل الخارجي والعمل بشكل أفضل مع روسيا.

في الواقع، قد تقلصت خيارات التدخل الأمريكي، فروسيا الآن موجودة على أرض وفي سماء سوريا. الرأي العام الأميركي لديه رغبة قليلة في تعريض حياة أعداد كبير من الجنود للخطر في دولة عربية أخرى. وأمريكا لا تحتاج النفط العربي بعد الآن، رغم أنها لا تزال معرضة لخطر أسعار الطاقة العالمية وانعكاساتها على الاقتصاد العالمي. لذلك قد لا تكون سياسات الرئيس القادم مختلفة بشكل كبير عن سياسات أوباما، الذي يرسل المزيد من القوات الخاصة إلى سوريا. العرب الذين يندون منذ فترة طويلة بالتدخل الأمريكي، قد يجدون غيابه أسوأ بكثير من وجوده.

المستقبل

ما معنى الديمقراطية في العربي؟

العديد من العقبات تقف في طريق الحرية السياسية

"لم تغير الثورة أي شيء، أستبدلنا عائلة من اللصوص بعوائل من اللصوص. هذه البلاد تعتمد على السياحة، والآن ليس هناك سياح." يقول أحد البائعين في شارع الحبيب بورقيبة في تونس، الذي شهد العديد من الاحتجاجات خلال ثورة عام ٢٠١١.

ظاهرياً، حققت تونس تحويل ممتاز نحو الديمقراطية. حافظت أحزابها السياسية على التعددية في اتخاذ القرار، وتنافسوا في جولتين من الانتخابات والتزموا بنتائجها. لكن الاقتصاد ضعف، والاحتجاجات تشتعل تدريجياً داخل المناطق الداخلية المحرومة في البلاد. إلى حد ما، لم يحالف الحظ تونس. فالبلاد تشعر باضطرابات جارتها ليبيا: العمال التونسيين هناك فقدوا أعمالهم، في حين دمرت معظم الصناعة السياحية بسبب الهجمات الإرهابية المتكررة.

في شهر مارس انصدمت البلاد من محاولة تنظيم الدولة الإسلامية الاستيلاء على بلدة بن قردان، بالقرب من الحدود الليبية. لكن الائتلاف الحكومي منقسم، ويكافح لتنفيذ اصلاحات اقتصادية. والحزب الحاكم، نداء تونس، أنقسم بعد عام من تسلمه السلطة. السبب الجزئي في ذلك العودة إلى العادة السيئة القديمة: محاولة الرئيس الباجي قائد السبسي تثبيت ابنه، حافظ، كوريثه السياسي.

مع ذلك، تعتبر تونس مثال ناجح مقارنة بالفوضى في البلدان الأخرى التي خلعت قادتها في عام ٢٠١١. رغم كل خيبة الأمل والفوضى التي تلت الانتفاضات العربية، من الصعب أن نتصور عودة المنطقة إلى حالة الجمود في العقود التي سبقت عام ٢٠١١.
الاستبداد قد رجع، ولكن العديد من الدول ضعيفة جدا ومجزأة والوصول إلى المعلومات في كل مكان، لتبقى دون منازع لفترة طويلة.



هذا التقرير كان يجادل أن انهيار النظام العربي ما بعد الاستعمار الاوربي، في صميمه، هو أزمة شرعية. تأثير الاستعمار، الذي غالبا ما يحمله العرب مسؤولية معاناتهم، لا ينبغي أن يكون عائقاً، فالعالم مليء بالدول ذات التاريخ الأسود والحدود الغريبة. سيتوجب على الحكومات العربية استعادة ثقة مواطنيها. لكن أولاً، عليهم توفير مستوى معيشة أفضل من خلال التغلب على نظام الريعية. ودول الخليج سيتوجب عليها التوقف عن الاعتماد على النفط. جميع الحكومات العربية عليها تقديم دعم مالي ومراقبة أقل للإنتاج، وحراسة أكثر أمان للسوق لمنع المقربين من السلطة من السيطرة على الاقتصاد. ثانيا، يتعين على الحكومات للحصول على شرعيتها من خلال الديمقراطية. الملكيات كان أدائها أفضل، لكنهم مع ذلك لا يجب عليهم ادعاء الحق في الحكم على أساس الميراث.

الديمقراطية في العالم العربي تواجه بالتحديد عقبتين. الأولى هي الخوف من وصول الأحزاب الإسلامية إلى السلطة، لكنهم قمع هذه الأحزاب قد يكون أسوأ. الجزائر للأسف ألغت نتائج انتخابات العامة لعام ١٩٩٢ التي فاز بها الإسلاميين، مطلقة العنان لتمرد مسلح طويل. يقع الفلسطينيون مع حكمهم شبه الذاتي في نسخة باهتة من الاستبداد العربي، فرفض حركة فتح القومية قبول فوز حماس في الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٦ أدى إلى صراع داخلي، والقطيعة بين غزة والضفة الغربية. بينما الانقلاب العسكري ضد جماعة الإخوان المسلمين في مصر، أدى إلى إنشاء دولة أكثر اختلال وقمعاً.

كانت تونس محظوظة بامتلاكها جيش أفضل (بقي في ثكناته) وإسلاميين أفضل (أكثر قدرة على العمل مع العلمانيين). "كل دولة تمتلك جيش ، لكن في مصر الجيش هو من يمتلك الدولة،" يقول راشد الغنوشي، زعيم حزب النهضة في تونس. الغنوشي لا يحب أن يقال عنه اسلامي سياسي، بل يفضل "مسلم ديمقراطي" لأنه، كما يقول، هناك مسلمون ليسوا ديمقراطيين. وأكد على ضرورة التعاون مع الأحزاب الأخرى: في مصر دستور ما بعد الثورة مرر بالإكراه من قبل الإسلاميين، لكن في تونس مرر بدعم العلمانيين. "في دولة ديمقراطية طبيعية ومستقرة، يكفي الحكم بأصوات ٥١% من الناخبين. لكنه غير كافي في ظل تحول ديمقراطي حديث. تحتاج إلى الإجماع."

وحجر عثرة ثاني أمام الديمقراطية هو تنوع الشعوب العربية. في الأوقات الجيدة التعددية الثقافية أمر رائع. ولكن في هذه الأيام كل الجماعات تتصرف مثل أقليات محاصرة. "في حكومة تمثيلية"، يجادل الفيلسوف والاقتصادي البريطاني جون ستيوارت مل أنه في "المؤسسات الحرة أشبه إلى المستحيل في بلاد متعددة القوميات" لأنه، كما يقول، "نفس الحوادث ونفس الأفعال ونفس نظام الحكم، تؤثر عليهم بطرق مختلفة، وكل قومية تخشى على نفسها الأذية من القوميات الأخرى أكثر من الحكم المشترك، الدولة." في العالم العربي تخشى كل جماعة أن يقوم خصومها بالسيطرة على الدولة ومواردها الاقتصادية، والأهم، أسلحتها.

من الناحية النظرية، الانفصال والفيدرالية واللامركزية قد تقدم بعض الطمأنينة إلى الأقليات. تحت اتفاقية سايكس-بيكو حديثة، قد ينقسم العراق إلى كردستان في الشمال وشيعستان في الجنوب وسنيستان في الغرب. سوريا قد تنقسم إلى علويستان على طول البحر الأبيض المتوسط، وسنيستان إلى الغرب، التي قد تندمج مع سنيستان العراق (كما فعلها داعش). في المملكة العربية السعودية الحجازين الأكثر ليبرالية على البحر الأحمر والشيعة في المنطقة الشرقية قد يكونوا سعداء بالتخلص من الوهابيين من وسط نجد.

مشكلة واحدة مع هذه المفاهيم هي أن معظم النفط سيكون في يد الشيعة. وثمة صعوبة أكبر في أن التجانس مستحيل في الأراضي التي فيها العرق والطائفة يمكن أن يتغير من قرية إلى أخرى. تغير الحدود قد يخلق مظالم بقدر ما يحلها، ويمكن أن يؤدي إلى فظائع جديدة حيث يحاول كل طرف انتزاع ما في وسعه وتطهير أراضي الأقليات غير المرغوب فيها. تقسيم فلسطين، وتبادل السكان بين تركيا واليونان وحروب البلقان هي تحذيرات من مدى سهولة حدوث ذلك.

رغم كونها مزعجة، أثبتت حدود ما بعد الاستعمار قدرتها على التحمل ويرجع ذلك جزئيا إلى أن القليل تجرأوا على تغييرها، وقرن من الزمن كانت كافي لتتجذر الهويات الوطنية إلى حد ما. انتشار الانتفاضات العربية قد أثبتت الروابط القوية بين العرب في مختلف البلدان، ولكن الطلب في الشارع من أجل التغيير داخل حدود كل بلد، وليس إلغاء الدولة الحديثة. حتى في العهد العثماني، كانت أجزاء كبيرة من الإمبراطورية شبه مستقلة بدرجات متفاوتة. محاولات دمج الدول الحديثة فشلت – أبرزها الاتحاد بين مصر وسوريا في الدولة العربية المتحدة بين عامي ١٩٥٨-١٩٦١. العالم العربي يحتوي على هويات قومية ولغوية ودينية متعددة.

خصوصاً في منطقة الهلال الخصيب، جزء من الحل يكمن في تسليم بعض السلطة من الحكومة المركزية إلى الأقاليم والمحافظات لضمان أن تلك الجماعات المعينة لا تشعر بالاضطهاد من الأغلبية أو حتى من الأقليات الأخرى. معظم العرب يرفضون الفيدرالية. يقول وليد جنبلاط، زعيم الدروز في لبنان متحسراً: "هذا هو الحلم الصهيوني القديم بتمزيق الشرق الأوسط برمته إلى أقاليم طائفية. أريد أن أكون جزءاً من عالم عربي أكبر." حتى الآن لم تنجح محاولات جعل السلطة لا مركزية. السياسة الغريبة المبنية على الإجماع في لبنان وفق لاتفاق الطائف عام ١٩٩١ قد حافظت على السلام، لكنها أدت إلى الشلل. فالدولة عاجزة على انتخاب رئيس منذ سنتين أو حتى جمع النفايات في بعض المناطق.

ولم يعالج النموذج الفيدرالي جراح العراق. فإقليم كردستان والحكومة الاتحادية في بغداد يخوضان حرب بيروقراطية على عائدات النفط. وحتى بين الشيعة العراقيين كانت هناك احتجاجات مضطربة ضد نظام المحاصصة الفاسد الذي يتم بموجبه توزيع السلطة للحفاظ على التوازن العرقي والطائفي ويسعى كل طرف حزب لحلب الحكومة المركزية من خلال العقود والتعيينات. كثير من الشيعة، الذين كانوا يؤيدون الفيدرالية، يتبنون الآن المركزية. ولكن بعض العرب السنة، المستضعفين الآن ، يدعون مؤخراً إلى إنشاء منطقة فيدرالية سنية.

تستطيع الدول العربية الاستفادة من تكامل عابر للحدود لإنشاء أسواق مفتوحة وتحفيز النمو. تعتبر الجامعة العربية كجسم سياسي، فاشلة. ولكن كثير من العرب معجبون بالاتحاد الأوروبي، رغم أنه يفقد جاذبيته لعدد متزايد من الأوربيين، لأسباب ليس أقلها اللاجئين العرب. يقدم التاريخ الأوروبي بعض العزاء للعرب: قبل أن تتوحد القارة، عانت من حروب أكثر دموية مما يتحمله العرب الآن. وهناك درس آخر من أوروبا بدأ البعض بالاعتراف به: الديمقراطية هي أساس الوحدة في المستقبل.

ينبغي تشجيع التقدم الديمقراطي والإصلاح الاقتصادي في تونس والمغرب. هذه دول صغيرة، لكن انتفاضات عام ٢٠١١ بينت أن البلدان الصغيرة يمكن أن تكون بمثابة نموذج للآخرين. بعد ذلك، يجب ممارسة الضغط على مصر للعودة إلى مسار الإصلاح. واحد من كل عربي هو مصري. إذا تحسنت أوضاع مصر، فستفيد المنطقة، أما انهيارها يشكل تهديدا للجميع، بما في ذلك أوربا.

سوف يكون من الصعب إحراز تقدم حقيقي قبل أن يتم إيقاف العديد من الحروب العربية. ويأمل المتفائلون أن الخراب السياسي يمكن إعادة بنائه، قطعة قطعة. تحاول حكومة الوحدة التي ترعاها الامم المتحدة ترسيخ نفسها في ليبيا. ربما أحدث وقف اطلاق النار في اليمن يستمر. ولعل محادثات السلام السورية سوف تصل إلى نتيجة. قد يكون هناك بعض الأمل في رؤية الشيعة العراقيين ينبذون ساستهم ونظام المحاصصة الطائفي. وفي سوريا، عندما يسمح وقف إطلاق النار بمتنفس للمواطنين، عليهم أن يخرجوا ينزلوا إلى الشوارع في المدن التي يسيطر عليها الثوار للمطالبة بحرية في تحد للكل من النظام والمليشيات الجهادية. ولكن الآن من السهل رؤية نشوب أزمة جديدة بدل من حل الأزمات الحالية. مثال على ذلك: الجزائر يمكن أن تنهار بعد وفاة رئيسها شبه المختفي، عبد العزيز بوتفليقة. لبنان والأردن قد تنتقل لهما عدوى الحرب. والحرب الباردة بين إيران والمملكة العربية السعودية قد تصبح ساخنة بحادث ما.

بحسب خبرتنا من الحرب الأهلية اللبنانية، فقد تطول الحرب في سوريا لعقد آخر. انتهت معاناة اللبنانيين عام ١٩٩٠ بسبب تغير سياسي مفاجئ: سُمح لسوريا بالقضاء على آخر جيوب المقاومة المسيحية في لبنان مقابل انضمامها إلى الحرب لتحرير الكويت من صدام حسين. ولكن في سوريا لا يبدو أن هناك أي قوة خارجية – ولا حتى روسيا - راغبة أو قادرة على ترجيح كفة أحد الأطراف لضمان انتصاره. القوى الخارجية لن تكون قادرة على إصلاح العالم العربي، حتى لو أرادوا. لكن الهجمات في باريس وبروكسل واسطنبول تبين أن العالم لا يمكنه تجاهل الأزمة الوجودية للعرب.

هذا التقرير يعبر عن رأي الكاتب فقط وليس المترجم.